سيبويه وجهوده اللُّغويّة في ميزان الدراسات المُعاصرة -وقفة مع نماذج مـُختارة-

Sibawayh and his linguistic efforts in the balance of contemporary studies-pause with selected models-

د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة
saifalislamsaad@yahoo.fr

الإرسال: 2023/05/14 النشر: 2023/07/03

ملخص:
يُعرف سيبويه بأنه أكبر علماء النحو وأشهرهم، وهو أوّل من بحث في النحو بحثاً يتسم بالتنظيم والمنهجية، وأول من ألّف فيه كتاباً شاملاً لم يدع شيئاً من علم النحو إلا ضمّه إليه، كما عبّر عن هذا الأمر العلاّمة عمر فروخ، ويهدف هذا البحث إلى تقديم عرض تحليلي عن مجموعة من الدراسات العلميّة الحديثة؛ التي أنجزت عن سيبويه، وتكتسي أهمية بالغة، إذ نحاول من خلال هذه الدراسة نفض جراب بعض الدراسات التي صدرت عن سيبويه، ومن خلال ذلك نكتشف رؤى مختلفة ومتنوعة؛ سعت إلى الإحاطة بجهوده في النحو، ونتبصر في أهم النتائج المتوصل إليها، وإن أول ما يعترضنا في هذا المجال هو كيفية الاختيار، والتمييز، فمن الصعوبة بمكان الإلمام بجميع الدراسات التي تعرضت إلى جهود أكبر علماء النحو وأشهرهم؛ فهناك عشرات الدراسات الجادة التي صدرت عنه في شتى أصقاع الوطن العربي، وعلى الرغبة من وجود هذه الإشكالية، بيد أننا انتقينا مجموعة من الدراسات المتميّزة.

كلمات مفتاحية: سيبويه ؛ جهوده ؛ دراسات ؛ معاصرة؛ نماذج.

Abstract :

Sibawayh is known as the largest and most well-known grammar scholar, and he is the first to research grammar in an organized and systematic manner, and the first to write a comprehensive book in which he did not leave anything from grammar science except to include it in it, as expressed by the scholar Omar Farroukh, and this research aims to provide an exposition My analysis of a group of recent scientific studies; Which was completed on Sibawayh, and it is of great importance, as we try through this study to unearth the pod of some studies that were issued by Sibawayh, and through that we discover different and varied visions; I sought to take note of his efforts in grammar, and we gain insight into the most important results reached, and that the first thing that we encounter in this field is how to choose and distinguish. There are dozens of serious studies published by him in various parts of the Arab world, and despite the desire for the existence of this problem, we have selected a group of distinguished studies .

Keywords : sibawayh; his efforts; studies; contemporary models.

توطئة:

يُعرف سيبويه بأنه أكبر علماء النحو وأشهرهم، وهو أوّل من بحث في النحو بحثاً يتسم بالتنظيم والمنهجية، وأول من ألّف فيه كتاباً شاملاً لم يدع شيئاً من علم النحو إلا ضمّه إليه، كما عبّر عن هذا الأمر العلاّمة عمر فروخ؛ الذي يذهب إلى أن أسلوب سيبويه كان ضعيفاً، فتعهّد الناسُ: «كتاب سيبويه» بالشرح والتوضيح، وأشهر شرّاحه أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي(ت:280هـ/893م)، وقد اشتهر هذا الكتاب شُهرة عظيمة؛ حتى أنه يُعرف باسم: «كتاب سيبويه»، وباسم:«الكتاب».(فروخ ، ع، 1992، 121) .

سيبويه وجهوده اللُّغويّة في ميزان البحث

حين عزمتُ على إعداد هذه الدراسة؛ انصرفتُ إلى الانكباب على مجموعة من الدراسات القديمة والحديثة ، والكتب والمراجع التي أحتاجها، وأستعين بها؛ حيث أُجريت مجموعة من الأبحاث العربية عن سيبويه ومن أبرز الدراسات القيّمة التي لفتت انتباهنا :

1-تقديم عبد السّلام محمّد هارون لكتاب سيبويه:

حقق عبد السّلام محمّد هارون كتاب سيبويه تحقيقاً علمياً دقيقاً، وخصص تقديمه للحديث عن سيبويه والكتاب؛ في الشق الأول من التقديم تحدث عن اسمه ولقبه وكنيته، ثم تطرق إلى نشأته وطلبه النحو، وتوقف مع شيوخه، وقدم لمحة عن بعض تلاميذه، ولم يُغفل الحديث عن مناظرات سيبويه، حيث يقول المحقق عبد السّلام محمّد هارون، في هذا القسم :«ومع ذلك قصد سيبويه إلى بغداد في خلافة الرشيد ووزارة يحيى بن خالد البرمكي؛ التي قلَّدها أول ما قلدها سنة:170هـ، وسأل يحيى أن يجمع بينه وبين الكسائي شيخ الكوفيين، فنصحه يحيى ألا يفعل، فأبى سيبويه إلا أن يفعل، واجتمع بالكسائي عند البرامكة، أو في دار الرشيد، أو في مجلس الأمين على خلاف في ذلك؛ فلقيه قبله أصحاب الكسائي، ومنهم الأحمر، وهشام والفراء، فناظروه وساءلوه قبل أن يلقى الكسائي، كأنما فعلوا ذلك ليخضدوا شوكته قبل لقائه للكسائي، ثم واجه الكسائي وناظره في المسألة المعروفة، وهي المسألة الزنبورية: (كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها)...ويذكرون أن سيبويه أخفق هذه المناظرة إخفاقاً مبلغ الظن أن الكوفيين افتعلوه؛ إذ لم يكن إخفاقاً علمياً، وإنما هو إخفاق مظاهرة علمية ليس لها وجه من الحق، أو لها وجه من الحق كوفي يُخالف وجه الحق البصري. ومهما يكن من شيء فإن يحيى البرمكي قد حفظ لسيبويه مقامه آخراً كما حفظه له أولاً، فأجازه بعد تلك المناظرة بعشرة آلاف درهم، من تلقاء نفسه، أو بإيعاز من الكسائي كما تذكر كتب التراجم».(هارون ، ع، 1983، 17) .

وقد ساق المحقق عبد السّلام محمّد هارون، عدة أقوال للعلماء في سيبويه، وتحدث عن ظروف مفارقته لبغداد ووفاته، وعن كتاب سيبويه، يقول: « وقد عُرف كتاب سيبويه من قديم الدهر إلى يومنا هذا باسم الكتاب، أو كتاب سيبويه، ومن المقطوع به تاريخياً أن سيبويه لم يُسمِّه باسم معيَّن على حين كان العلماء في دهره، ومن قبل دهره يضعون لكتبهم أسماء: كالجامع، والإكمال

لعيسى بن عمر، والعين المنسوب إلى الخليل. وقد يكون أعجل عن تسميته بأنه احتضر شاباً، فلم يتمكن من معاودة النظر فيه واستتمامه، فليست للكتاب مقدمة، وليست له خاتمة مع جلالة قدره وإحكام بنائه»(هارون ، ع، 1983، 23)، ويعتقد المحقق عبد السّلام محمّد هارون؛ أنه ألفه بعد موت الخليل(160ه)؛ حيث إن مخطوطات الكتاب نجد فيها كثرة التعقيب على قول الخليل بعبارة(رحمه الله)، ويشير المحقق كذلك لدى حديثه عن مادة الكتاب؛ إلى أن سيبويه قد انتفع بعلم الخليل انتفاعاً ظاهراً، كما انتفع بعلم شيوخه، كما أفاد ممن سبقه من أئمة النحو الذين ألفوا فيه أو أثرت عنهم رواية فيه، كما أن كتاب سيبويه لم يقرأه على أحد، ولا قرأه أحد عليه، كما يرى المحقق أن أسلوب الكتاب فيه كثير من الغموض (هارون ، ع، 1983، 29 و30).

2-المدارس النحوية لشوقي ضيف:

خصص الباحث(شوقي ضيف)الفصل الثالث من كتابه: «المدارس النحوية»للحديث عن سيبويه وجهوده؛ وبعد أن توقف مع نشاطه العلمي، جعل القسم الثاني من هذا الفصل للإضاءة على الكتاب، وأول ملاحظة يُقدمها على الكتاب أن سيبويه لم يضع له اسماً يُفرده به، ويُرجع هذا الأمر إلى أن وفاته أعجلته عن تسميته، كما أعجلته عن وضع مقدمة بين يديه، وخاتمة ينتهي بها، ويقول في هذا الصدد: «لعلنا لا نبعد إذا قلنا إنه لم يأخذ الفرصة الكافية كي يُنقح الكتاب، ويخرجه إخراجاً نهائياً، وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في أننا نجد عنده أحياناً شيئاً من الاستطراد؛ كأن يتحدث في بعض أبواب النحو عن مسائل صرفية، وكأن يتعرض لبعض صيغ ليست من الباب كتعرضه لبعض صيغ الحال في حديثه عن النعت، وقد يتحدث عن باب في موضعين على نحو ما صنع في جموع التكسير في الجزء الثاني من الكتاب، وينبغي أن لا نظن من ذلك أن الكتاب لم يكفل له منهج سديد في التصنيف؛ فقد نسَّق سيبويه أبوابه وأحكمها إحكاماً دقيقاً، وخاصة إذا عرفنا أنه أول كتاب جامع في قواعد النحو والصرف، وقد جعله في قسمين كبيرين، أما القسم الأول فخصَّه بالنحو ومباحثه، وكاد لا يترك في هذه المباحث جانباً إلا استقصاه من جميع أطرافه في الجزء الأول من الكتاب وأوائل الجزء الثاني»(ضيف ، ش، 1990، 60).

وبالنسبة إلى معالجة سيبويه للتعريفات والعوامل والمعمولات؛ فقد لاحظ الباحث شوقي ضيف أنه يغلب على سيبويه أن يُعنى في توضيح الباب الذي يتحدث عنه بذكر أمثلته التي تكشفه، وتتداخل نظرية العوامل في كل أبواب الكتاب وفصوله النحوية، بل إنها الأساس الذي يبني عليه حديثه في مباحث النحو، وهي موجودة منذ السطور الأولى في الكتاب، فقد عقَّب على حديثه عن مجاري أواخر الكلم الثمانية، أو بعبارة أخرى عن أنواع الإعراب والبناء للكلمات، بقوله: (وإنما ذكرت لك ثمانية مجارٍ، لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة، لما يُحدث فيه العامل وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه، وبين ما يُبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكل عامل منها ضرب من الفظ في الحرف، وذلك الحرف حرف الإعراب)؛ فالعامل هو الذي يحدث الإعراب وعلاماته من الرفع والجر والنصب والسكون، وقد مضى يوزع الأبواب

باعتبار العوامل، والعوامل تعمل مذكورة ومحذوفة، ويكثر حذف الفعل وبقاء عمله؛ مما جعل سيبويه يفرد لذلك صحفاً كثيرة، حاول فيها أن يستقصي صور حذفه استقصاء دقيقاً، وقد دفعه ذلك منذ بادئ الأمر إلى اكتشاف باب الاشتغال الذي يُشغل فيه الفعل، أو شبهه بضمير عن العمل(ضيف ، ش، 1990، 69).

وعن السماع والتعليل والقياس، يذكر الدكتور شوقي ضيف أن سيبويه«يجري في السماع على الأساس الذي وضعته مدرسته، وهو النقل عن القُرَّاء وعلماء اللغة الموثَّقين والعرب الذين يوثق بفصاحتهم، واستنَّ بمدرسته في قلة الاستشهاد بالحديث النبوي؛ لأنه رُوي بالمعنى لا باللفظ، ودخل في روايته كثيرون من الأعاجم الذين لا يُؤمنون على اللحن...ويتردد في الكتاب سماعه عن علماء اللُّغة الموثِّقين في موطنه، وفي مقدمتهم أستاذه الخليل، وله في الكتاب القدح المعلّى، ويليه يونس بن حبيب، وقد نقل عنه أكثر من مائتي مرة، ثم الأخفش الكبير... وتكثر التعليلات في كتاب سيبويه كثرة مفرطة، سواء للقواعد المطردة أو للأمثلة الشاذة... وعلى نحو ما يتسع سيبويه بالتعليل في النحو يتسع به في الصرف، وخاصة في باب القلب والإعلال، وطبيعي أن يكثر القياس في كتاب سيبويه كثرة مفرطة؛ لأنه الأساس الذي يقوم عليه وضع القواعد النحوية والصرفية واطّرادها، وهو يعتمد عنده في أكثر الأمر على الشائع في الاستعمال على ألسنة العرب، كما يقوم على المشابهة بين استعمالاتهم في الأبنية والعبارات المختلفة»(ضيف ، ش، 1990، 80).

3-الجُملة في كتاب سيبويه لعبد الرحمن الحاج صالح:

نُشرت هذه الدراسة في مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، وفي الجزء الأول من كتاب: «بحوث ودراسات في اللسانيات العربية» للعلاّمة عبد الرحمن الحاج صالح؛ وقد ذكر أنها قدمت في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في:1993م، وقد استهلها بتقديم ملاحظة دقيقة، جاء فيها: «إنّ كتاب سيبويه، كما هو معروف أقدم كتاب في النحو وصل إلينا من حسن الحظ والغريب، أو ما يبدو أنه غريب، أنّ هذا الكتاب على الرغم من قدمه فإنّه يحتوي على جميع ما عُرف بعد سيبويه من أبواب النحو والصرف، وجميع ما اشتُهر بعده من مسائله فهو عمل ناضج تمام النضج، وبما أنّه لم يسبقه على أصحّ الأقوال أي كتاب يماثله في غزارة المادة والدقة العلمية المتناهية، فكأنّه خرج من العدم في ظاهر أمره وليس الأمر كذلك. إلا أنّ هذا لا يعني أنّ النظرية العلمية للغة التي يعتمد عليها هي التي نعرفها اليوم من خلال ما قاله المتأخرون من النحاة مثل ابن مالك في ألفيته، وكتابه التسهيل وشرح هذين العملين، أو مثل أبي البركات بن الأنباري قبله، أو ابن هشام صاحب أوضح المسالك وغيرهم، فقد مضت أكثر من أربعين سنة على جهود بذلناها لمعرفة هذه النظرية القديمة، فاتّضح لنا الفرق الكبير الذي يميّز المنظور العلمي الدقيق لسيبويه وشيوخه وتلاميذه للغة وكيفية تحليلهم لها بناءً على هذا المنظور من النزعة التعليمية للنحو التي استولت على الممارسين للنحو بعد القرنين الخامس والسادس» (الحاج صالح ، ع، 2007، 290).

لاحظ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح عدم وجود مصطلح جملة في الكتاب؛ حيث يُنبِّه إلى أن هذا الأمر غريب، ألا يوجد أثر لكلمة جملة في كتاب سيبويه، وكذلك عبارة جملة مفيدة، لا أثر لها في هذا الكتاب، وتحت عنوان: «التمييز الحاسم بين النظرة إلى الكلام كخطاب والنظرة إليه كبنية»، خرج الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح بنتيجة واضحة، وهي أن سيبويه والخليل بن أحمد قد انفردا مع أكثر النحويين الأقدمين بنظرية اندثرت بعدهم، وصارت بعد غزو«المنطق اليوناني خاصة، لا يتفطن إليها إلاّ الأفذاذ من النحاة مثل السهيلي، والرضي الاستراباذي، ومن أهم المبادئ التي بُنيت عليها هذه النظرية نذكر تمييزهم الصارم في تحليلهم للغة بين الجانب الوظيفي من جهة وهو الإعلام والمخاطبة من جهة، أي تبليغ الأغراض المتبادل بين ناطق وسامع، وبين الجانب الفظي الصوري من جهة أخرى، أي ما يخص اللفظ في ذاته وهيكله وصيغته بقطع النظر عمّا يؤديه من وظيفة في الخطاب غير الدلالة اللفظية. إذ هناك دلالة اللفظ ودلالة المعنى، وقلّ من انتبه بعد ابن جني إلى الضرر العظيم الذي يسببه التخليط بين هذين الجانبين من التحليل، فكل منهما يمتاز تحليله عن الآخر بمنهجية خاصة به، ومبادئ وقوانين لا تمتّ بسبب إلى الجانب الآخر؛ فأكبر دليل على سلامة هذا التصوّر وفساد التخليط بين الجانبين هو عجز النحويين المتفلسفين عن تحديد مفهوم الاسم في مقابل الفعل والحرف».(الحاج صالح ، ع، 2007، 292).

وقد أشار الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في عدة دراسات إلى جهود سيبويه، ومن بين الدراسات التي أشار فيها إلى جهوده، دراسة معنونة بـ: « النحو العربي والبنوية:اختلافهما النظري والمنهجي»؛ وقد نشر الأستاذ الباحث الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح هذه الدراسة في مجلة(الآداب والعلوم الإنسانية) الصادرة عن جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بمدينة قسنطينة سنة:2002م، وهو يقصد بالبنوية المذهب اللغوي العلمي الذي ظهر في أوروبا وأمريكا مع بداية القرن العشرين للميلاد، وتطور وبلغ أشده في نهاية الأربعينيات، وقد دعا أصحاب المذهب إلى دراسة اللغة كنظام وبنية لها وجود سابق لوجود أجزائها ومكوناتها، وقد عرف جمهور المثقفين العرب في زماننا هذا البنوبة الغربية منذ عهد قريب،وسبقهم بعض من أوفد إلى أوروبا للدراسات العليا في اللغة، فاتفق أن كانت البنوية هي السائدة في الجامعات الأوروبية آنذاك، وذلك على شكل مدارس حيث يتزعم كل مدرسة في كل بلد أحد الأساتذة الكبار الذين اشتهروا ببعض الأفكار في مذهبهم البنوي، وقد قدمت البنوية جملة من الأفكار العلمية الدقيقة إضافة إلى النظريات ومنهجية جديدة، يصفها الحاج صالح بأنها مهمة ومفيدة بالنسبة إلى ما كان متعارفاً عليه في الغرب قبل ظهورها، أما بالنسبة لنا نحن العرب فكثيراً ما طرح السؤال عن إمكانية الاستفادة مما يوجد في هذا المذهب الجديد ولاسيما ما ثبتت صحته فيه عند جميع العلماء، وهو شيء يرى الحاج صالح أنه حسن إذ لابد من أن يراجع العلماء نظرياتهم ومناهجهم العلمية كلما اقتضى الحال، لأن سير العلم لا يتوقف(إلا عند قوم دون قوم في تاريخ البشرية)بيد أن ذلك يقتضي أيضاً أن نمعن النظر فيما نقول عنه إنه قد ثبتت صحته، ولا نتسرع في الحكم على ذلك، ولا بد من إطالة البحث عما

أدى غيرنا، أما ما يقصده بالنحو العربي فهو نحو الخليل وأصحابه، أو ما توصل إليه النحو في زمانه وزمان سيبويه وفي عهد أتباعهما الكبار، والسبب في ذلك أنهم هم المبدعون للنحو العربي ونظرياته المتسمة بالأصالة والعمق. (الحاج صالح ، ع، 2002، 7). وقد أشار الدكتور عبد الرحمن الحاج إلى بعض ما يتفق فيه النحو العربي مع اللسانيات البنوية من حيث إن لكلا العلمين موضوعاً واحداً وهو اللغة في ذاتها فدراسة اللغة تهتم عند النحاة العرب والبنويين باللغة في ذاتها، ومن حيث هي هي، أي من حيث كونها أداة للتبليغ أو التعبير عمّا يكنّه الإنسان ولا تلتفت إلى ما كانت عليه قبل أن تصير إلى ما هي عليه، فهي دراسة متميزة بأنها آ نية لا زمانية(سنكرونية لا دياكرونية على حد تعبير دي سوسور) فكلاهما يتناول اللغة بالتحليل والتشريح إلى أجزائها الكبرى والصغرى، وكلاهما يبحث عن طريقة وكيفية تركيبها بعضها في بعض،إلا أن العلاّمة الحاج صالح ينبه إلى أن فضل اللسانيات الغربية على سابقاتها يتجلى في اهتمامها الكبير الذي أظهرته في القرن التاسع عشر بتحوّل اللغات إلى لغات أخرى عبر الزمان، وذلك لم يتبادر إلى ذهن القدامى(لأسباب تاريخية محضة لا لنقص في عقولهم)،وهذا الأمر الذي يُطلق عليه تطور اللغات(المرور على أطوار تتحول فيها مثل الكائنات الحية)،ويذهب الباحث عبد الرحمن الحاج صالح إلى أن فضل البنوية يبرز من خلالها أنها فتحت الباب من جديد وعلى أسس علمية جديدة أيضاً للدراسة الآنية بعد أن غلا التاريخيون بحصرهم الدراسة في الوجهة التاريخية وحدها، وأفضل من هذا هو حملها الباحثين في تاريخ اللغات على أن يتتبعوا تطور بنى اللغة لا تطور جزئياتها منفردة، بيد أن هذا الفضل الكبير جداً لا يُمكن إنكاره فلابد أن يقترن التنويه به-كما يرى الحاج صالح-بتنويه ما أخرجه القدامى من العرب وغيرهم من النظريات العميقة وما اكتشفوه من أسرار اللغات، فتوارثه الناس غير أنه كان مشوهاً بعد القرن السادس الهجري فيما يخص العرب، وذلك مثل ما قله العلماء الهنود عن لغتهم المقدسة السنسكريتية ويقر البنويون إقراراً نزيهاً بفضلهم عليهم، بل ويذهب الكثير منهم إلى أن أفكاراً كثيرة في البنوية قد سبق إليها الهنود،وذلك مثل التمييز الحاسم بين الصوت الآلي وتأدياته المتنوعة، وهذا الصوت الذي تتألف منه الوحدات الدالة هو عند أفلاطون جنس من الأصوات فهو عنده وكما قال سوسور كيان بمجرد وليس بمادة، وقد ألحت البنوية على ضرورة التمييز بين الصوت بصفته مادة للحرف،وبين الوحدة الصوتية التي هي جنس من الأصوات،وقد فصل أرسطو في كتاباته المنطقية وأفاد الغربيون مما ترجم إلى اللاتينية من كتب النحو العربي،ولاسيما مفهوم العامل الذي أحياه من جديد تشومسكي في أيامنا هذه،كما ينطلق البنويون من واقع اللغة شأنهم في ذلك شأن النحاة القدماء،حيث إنها تريد(البنوية) أن يعتمد على مجموعة من الخطابات يدونها اللغويون في عين المكان الذي يعيش فيه في زمان محدد أصحاب اللغة المرغوب في تحليلها،والبحث فيها،وأن يتم الاقتصار على هذه المدونة وحدها فلا يتم تغيير أي شيء منها،ولا يلجأ في الاستشهاد بشيء من خطابات الباحث نفسه أو جماعة غير الجماعة المعنية بتلك اللغة، ونجد هذا التحرج نفسه عند النحاة العرب،إذ لا يمكن أن يتم الاستشهاد إلا بما هو

ثابت لا يرد،وهو موجود ومتوفر في دواوين العرب التي دونها العلماء من الشعر والكلام المنثور والأمثال ولا يلجأ إلى غير ذلك،فكل منهم يراعي الواقع كما هو،وما ينجم على ذلك هو الاعتماد الرئيس على المشاهدة، وهو السماع عند العرب مع معاينة أحوال الخطاب(و الشواهد في النحو ما هي إلا معطيات يستدل بها النحوي)، فكل من النحاة والبنويين يجعلون المشاهد المسموع بالفعل هو مادة البحث والمنطق لكل تحليل، وقد يسعى النحاة إلى أن يفسروا هذا الواقع باستخدام وسائل عقلية قد لا تعرفها البنوية،غير أن الرجوع إلى السماع في كل محاولاتهم هو الأساس،في حين أن فكرة المدونة اللغوية المغلقة فهو شيء اختصت به البنوية،كما أن الاتفاق يقع في دورة التخاطب وظواهرها فاللغة هي للتبليغ،وتلك هي أهم وظائفها،وتحاول البنوية أن تدرك حقيقة الظواهر اللغوية باللجوء إلى الاقتصاد والفرق،فالاقتصاد يتبدى من خلال ميل المتكلم إلى التقليل من الجهود العضلية والذاكرية التي يبذلها في عملية التخاطب،وقد لجأ النحاة كذلك إلى مبدأ الاستخفاف في تفسير ظواهر كثيرة مثل: الحذف والإدغام والاختلاس،وقد ظهر لهم أن بعض الحركات المحدثة للحروف إذا تتابعت وتتالت استثقلها الناطق كالخروج من الضم إلى الكسر،أو ككثرة تتالي الحركات المصوتة وغير ذلك. (الحاج صالح ، ع، 2002، 8).

وبالنسبة إلى أهم ما يوجد من الفوارق بين النحو والبنوية فقد أشار العلاّمة عبد الرحمن الحاج صالح إلى عدة قضايا تتعلق بالمعيارية والوصفية ،فيقول في هذا الصدد: « إن هذا الجانب هو أهم بكثير من جميع الجوانب التي تخص اللغة لأنه الجانب الذي تكثر فيه الأحكام الخاطئة في زماننا هذا،بل الأوهام الرهيبة عند علماء اللسان،سواء منهم الغربيون أم الباحثون العرب.إن أهم ما تفتخر به البنوية هو مذهبها الوصفي وتعتبره المذهب الوحيد الذي يستحق أن يوصف بأنه علمي،وتغلو في ذلك أيما غلو ويجب قبل أن نتطرق إلى ذلك أن نذكر النزعة الوصفية المغالية تعارض نرعتين في الحقيقة: النزعة إلى الحكم على العبارات بأنها صواب أو خطأ لأنها موافقة أو مخالفة لمعيار اجتماعي ما، والنزعة الثانية هي محاولة تعليل الظواهر اللغوية،أما القول بأن التحليل العلمي للغة يقتضي امتناع الباحث من التدخل في موضوع بحثه بالحكم على ما يدونه من المعطيات بالصواب أو الخطأ،فهو صحيح لا مراء فيه لأن الباحث النزيه لا يحكم على المعطيات إلا بما فيها لا بما يعجبه فيها أو يعجب فئة قليلة من المجتمع،وإن صدر منه هذا فهو تحكم محض وخروج عن العلم.وعلى هذا فإن النحو العربي-مثل النحو التقليدي الأوروبي-لا يكون إلا معيارياً إذ يقول أصحابه في كل مناسبة:إن هذا حسن وذاك قبيح،ويكون النحوي-مثل سيبويه-في هذه الأحكام من أبعد الناس عن العلم الموضوعي،إذ يفضل –حسب قولهم-معياراً على الآخر، والحق غير هذا الذي يقولونه عن النحو العربي(بالنسبة إلى سيبويه وأصحابه)، وذلك لأسباب منها:

إن معيار اللغة ظاهرة من الظواهر وهي تخص سلوك الناطق بها،فلا يمكن أن تهدر في البحث بدعوى أن الحكم بالصواب والخطأ تحكم محض،فأين هي اللغة التي يقول عنها أصحابها كلهم إن الصواب والخطأ اللغوي سيان عليهم،وأية لغة في الدنيا يخطئ الناطق بها عرضاً في عبارة معينة

فلا يقوّمه أحد من أصحابها وأية لغة في الدنيا يمكن أن ينطق فيها الناطق بأي شيء بدا له دون أن يخضع لما تعارف عليه أصحابها؟فكيف يمكن أن نكتفي بالوصف لجانب واحد من اللغة....

2-إن قولهم(هذا جيد وهذا رديء)إنما يخص الخروج من القياس،أي الباب،لا أي خروج،بل ذلك الذي يكون قليلاً جداً في استعمال الفصحاء أي السليقيين من الناطقين.وهم لا يعتبرونه لحناً،أي خروجاً مطلقاً عن العربية،فكل ما أجري على غير وجهه أو وضع في غير موضعه ولم يستعمل أصلاً أو استعمله القليل من الناس وتركته عامة العرب الموثوق بعربيتهم فإنهم ينعتونه بالقبيح أو الضعيف أو الرديء وإن كان المستعمل منه جائزاً،إذ هناك فرق عندهم بين المستقيم القبيح على حد تعبير سيبويه وبين القبيح الذي لا يستقيم أبداً ولا يجوز لأنه جمع بين شذوذه وعدم وجوده إطلاقاً في الاستعمال(ويكون غالباً نتيجة لعملية قياسية غير سليمة أو شيء سمع من فرد واحد أو أفراد غير موثوق بلغتهم أو برواية ضعيفة)» (الحاج صالح ، ع، 2002، 11). كما أشاد الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، بجهود سيبويه اللغوية، في دراسة موسومة بـ: « تحديث أصول البحث في التراث اللغوي العلمي العربي»، وقد ألقى العلاّمة الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح هذا البحث في المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في شهر مارس:2005م، ونشر في العدد الرابع من مجلة المجمع الجزائري للغة العربية سنة:2006م،قدم من خلاله مجموعة من الرؤى العلمية التي تكتسي أهمية كبيرة بالنسبة إلى التراث اللغوي العربي،حيث نلفيه يدعو إلى تجديد وتطوير البحوث العلمية التي تتطرق إلى ما تركه العلماء العرب القدامى في علوم العربية والعلوم اللسانية عامة،حيث إن التجديد يجب أن يشمل كل جوانب البحث ولا يقتصر على منهجيته فقط،وأحوج هذه الجوانب إلى ذلك هي الأصول التي تعتمد عليها هذه المنهجية فضلاً عن النظرة إلى هذا التراث وكيفية تقويمه، وأصل الأصول كما يرى هو الاستقلال المطلق للفكر وعدم الخضوع لنظرة الغير والامتناع عن التمسك بعقيدة سابقة غير الأصول العقلية والعلمية المجمع على صحتها في كل زمان وفي كل مكان وهذا الخضوع كما يرى هو التقليد ليس إلا،وهو سلوك الجاهل أو الشبيه بالمثقف الذي لا يقدر على الاجتهاد،وهناك نوع من التقليد قد يخفى الكثير وهو أبغض أشكاله فقد ينخدع الباحث بالنظريات الطارئة لاستهتار الناس وانبهارهم بها،وهي مثل الموضة لا يطول هذا الولوع بها حتى يزول،ويرى أن هذه الأمثلة تنطبق على النظريات الخاصة بالتراث اللغوي،فقد ظهر من ذلك في زماننا ولاسيما عند المستشرقين آراء راسخة في الأذهان في الغالب ومن ذلك فكرة اللغة المشتركة الأدبية فيما يخص العربية الفصحى وذلك في مقابل اللهجات وفكرة جهل النحاة أو تجاهلهم بهذا الذي يسمونه حقيقة تاريخية ولا تقبل الجدل عندهم،أو كفكرة نشأة النحو العربي بتأثير المنطق اليوناني وتأسيس كل المفاهيم النحوية العربية على مفاهيم هذا المنطق، ومن ذلك جعل بعضهم ما جاء في النظرية اللغوية التي ورثها الغربيون من الحضارة اليونانية حقيقة لا جدال فيها وذلك مثل التقسيم للمصوتات إلى قصيرة وطويلة بالاعتماد في ذلك على جانب واحد وهو الجانب الصوتي الفيزيائي، وعدم الالتفات إلى الجانب الآخر الذي لا يقل أهمية وهو الجانب الحركي

المُحدث للصوت، ولتسلسل الأصوات ومن ثم أيضاً مفهوم المقطع، وقد بيّن العلماء بتجارب مخبرية أنه لا وجود للمقطع في درج الكلام و لا يتحقق إلا بين وقفتين وهذا يؤكد النظرية الحركية العربية، ويؤكد العلاّمة عبد الرحمن الحاج صالح على أن الأصول التي ينبغي أن تعتمد تتكون من:

ضرورة الرجوع إلى ما قاله القائل هو نفسه أي إلى نص قوله والامتناع الباتّ من الاكتفاء في ذلك بما روي عنه مع وجود النص، فإن لم يوجد فلا بد من الاعتماد على ما رواه عنه أصحابه الذين سمعوا منه مباشرة، وإذا لم يوجد النص الأصلي كما رووه عنه أصحابه فلا مناص من مقابلة ما روي عنه بما تركه القائل من آثار وما روى عنه أصحابه من أفعال لها شهدوها عياناً فقد يمكن أن تتناقض هذه الأفعال بما روي عنه بعدهم.

ضرورة الرجوع إلى أكثر من مصدر في كل ما يروى ويجب لأن تنتمي كلها إلى عصر واحد ولم تكن بعضها منقولة عن بعض كما يحصل ذلك غالباً إذا توالت في الزمان، وهذا ما يصفه العلماء العرب بأنه(سُمع من أكثر من وجه)في كل أنواع السماع(حديث، قراءات،لغة...إلخ)،وهو أهم مبدأ في علم التاريخ في الوقت الحاضر...

ضرورة التمييز بين المصادر(ويقصد هنا كل مكتوب) واختيار ما وقع عليه الإجماع على توثيقه والتحفظ من كل مصدر ثبت أنه يحتوي على الصحيح وغير الصحيح من الأخبار، تم ترك كل مصدر اتهم صاحبه بالكذب أو بالتساهل في قبول كل ما يُروى....

ضرورة تقديم النظر في النص الأصلي على التأويلات والشروح التي تلت هذا النص، ويقصد بذلك أنه لابد من الفحص في النص الأصلي بطريقة علمية معينة...

5-ضرورة التصفح الكامل للنص مهما بلغ طوله قصد الحصر للألفاظ الهامة التي يكثر ورودها مع جميع سياقاتها التي وردت فيها، وهذا له علاقد بمبدأ الرجوع إلى كلام المعني بالأمر هو نفسه وعلاقة بفهم النص بالاعتماد على النص نفسه.

6-اللجوء بعد هذا التصفح إلى طريقة خاصة لاكتشاف المعاني المقصودة في النص.

7-الاعتداد المستمر بعامل الزمان وتأثيره في تحول التصور العلمي والمفاهيم وبالتالي تحول معاني المصطلحات من عصر إلى آخر.

8-ضرورة النظر في جميع النظريات اللسانية الحديثة وتمحيصها واعتبارها قبل كل شيء كنظريات لا كحقائق مسلمة وكذلك هو القول على مبادئها ومناهج البحث التي تسير عليها. (الحاج صالح ، ع، 2006، 9).

4-حول كتاب القوافي لسيبويه:

أنجز هذه الدراسة الباحث الأردني(حنا جميل حداد)، ونشرت في مجلة جذور؛ وهي مجلّة فصليّة تصدر عن النّادي الأدبي الثّقافي بجدّة بالمملكة العربيّة السّعودية، وقد استهلها بالتساؤل: وهل كان لسيبويه كتاب آخر غير كتابه المعروف؟ وذكر الباحث(حنا جميل حداد) أن أقدم إشارة إلى وجود هذا الكتاب والنقل عنه تعود إلى القرن الثامن الهجري، وذلك عند الإمام الشاطبي، في

كتابه: « المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية»، وخلص في ختام هذا البحث إلى أن كتاب القوافي لسيبويه كان حقيقة لا وهماً، وأنه ظل موجوداً بين أيدي العلماء حتى القرن الثالث عشر الهجري يرجعون إليه، وينقلون عنه، ولكنه اختفى بعد ذلك، وأصبح من تراث العربية المفقود، أو أنه مازال موجوداً متوارياً في ركن من أركان حفظ المخطوطات العربية في مكان ما من العالم ينتظر الكشف عنه، وتقديمه للدارسين(حداد ، ح، 2011، 166).

ومن بين المعطيات التي قدمها الباحث(حنا جميل حداد)؛ أن سيبويه كان مقرباً من الخليل بن أخمد واضع علم العروض في العربية، وتلميذاً أثيراً من تلاميذه، كما تؤكد هذا مصادر ترجمة الرجلين والتعريف بهما، وكما اتضح بعد ذلك؛ أن سيبويه قد حفظ آراء الخليل بن أحمد في النحو العربي وأودعها كتابه، فليس بعيداً أن يكون قد نقل عنه في العروض والقوافي الشيء الكثير، ووضع منهما مؤلفاً كما وضع في النحو كتابه الأشهر(حداد ، ح، 2011، 166).

كما يذكر أن« كتاب سيبويه الذي بين أيدينا اليوم لم يكن خالصاً للفكر النحوي واللغوي، ولكنه جمع معهما أيضاً مباحث وموضوعات ذات علاقة وثيقة بعلم العروض والقوافي، كالباب الذي عقده في الجزء الأول من كتابه، بعنوان: (هذا باب ما يحتمل من الشعر)، والباب الذي وضعه في وجوه القوافي في الإنشاد، ثم الباب الذي وضعه في الإدغام في الحرفين، وقد تضمن الحديث عن القوافي المحذوفة والردف، وهما من مصطلحات علم العروض والقافية كما لا يخفى»(حداد ، ح، 2011، 167).

ويعتقد الباحث(حنا جميل حداد)؛ أن الذين نقلوا عن كتاب القوافي لسيبويه، أو امتلكوا نسخة منه، ما كان لهم أن يُسلّموا بصحة نسبة الكتاب للرجل، أو يطمئنوا إليها، لو لم يكونوا على ثقة تامة بأن الكتاب له، وما كان هناك حائل يحول دون التشكيك بصحة هذه النسبة، أو عدم العناية بها، أو الالتفات إليها؛ لأن الرجل الذي نسب إليه الكتاب لم يكن عندهم مغموراً، وليس شرطاً أن يكون كتاب القوافي لسيبويه مستقلاً بذاته صادراً عن كتابه الأم الذي اشتهر به، إذ ربما كان كتاب القوافي هذا جزءاً من الكتاب الأم يُشكل مع الأجزاء الأخرى التي خصصت للحديث عن النحو والصرف والبلاغة وغيرها(حداد ، ح، 2011، 168).

ويخلص الباحث(حنا جميل حداد) إلى أن« كتاب القوافي لسيبويه هذا ربما كان جزءاً من كتاب سيبويه الكبير، ولكنه فُقد في حادثة الحريق الذي تحدث القدماء عنها-إن صح الخبر- وكان سبباً في ضياع الكتاب الأم بشكله المتكامل، وإن الذي بين أيدي الناس منه اليوم ليس إلا بقايا منه جمعها سيبويه مما لم يتلف، ولم تأت عليه النار مع ما اختزنته ذاكرته من مادته وموضوعاته؛ وإلى أن تظهر الحقيقة جلية واضحة، ويكشف لنا المحققون والمولعون بالتنقيب عن نوادر التراث...نبقى على اعتقادنا أن كتاب القوافي لسيبويه، وإن كان جزءاً أو فصلة من الكتاب الأم هو حقاً لسيبويه، وأنه ينضاف إلى مكتبة العروض والقافية في تراثنا الخالد، ويوصف بأنه من بدايات التأليف في علم العروض والقوافي»(حداد ، ح، 2011، 169).

5-من يتحدّى سيبويه:

نُشر هذا البحث في مجلة اللّغة العربيّة؛ وهي مجلة نصف سنوية مُحكّمة تُعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربيّة، وهو من إنجاز الباحثة فريدة بن فضة، ويتضمن مناقشة لكتاب بعنوان: « لتحيا اللّغة العربية: يسقط سيبويه»، لصاحبه شريف الشوباشي، وقد وصفت الكتاب وصفاً خارجياً، بالقول: « ينقسم عنوان الكتاب إلى شطرين؛ فالشطر الأول منه لتحيا اللغة العربية الملون باللون الأصفر، الذي يحمل دلالة الغيرة لإيهامنا بأنه يغار على هذه اللّغة المجيدة، ويتمنى حياتها ونموها وانتشارها، ويخشى من موتها واندثارها، أمّا الشطر الثاني من العنوان: يسقط سيبويه، الملون بالأزرق والذي يحمل دلالات عدة فقد يرمز إلى التفتح وإلى السماء، وكذا البحر، وما هذا إلا دليل قاطع على شساعة قواعد اللغة العربية شساعة البحر، وهذا ما جعل شريف الشوباشي يصف تلك القواعد النحوية التي أسس بنيانها سيبويه بالتعقيد، ويدعو على سيبويه ويتمنى له السقوط، مما قد يُفهم منه أن الشوباشي يُريد إسقاط اللغة العربية، بإسقاط سيبويه، لكونه العماد الأول لوضع القواعد النحوية»(بن فضة ، ف، 2008، 16).

تعتقد الباحثة فريدة بن فضة أن أكبر خطإ منهجي وقع فيه فريد الشوباشي هو تحميل النحو العربي مسؤولية تردي مستوى الأداء اللغوي الذي نعاني منه، وكذا عدم مسايرة العربية لعصرها، ومن الظلم الفادح للنحو-مهما كانت صعوبته أن نحمله مسؤولية ضعفنا اللغوي، كما أنه لم يُفرق بين النحو العلمي، والنحو التعليمي، وكتاب سيبويه نحو علمي، أما الكتب التي تلته فتفسيرية . (بن فضة ، ف، 2008، 22).

وقد علّق العلاّمة مختار الأحمدي نويوات على ما جاء في هذا المقال، بكتابة افتتاحية في مجلة اللّغة العربية، عنوانها: «الشوباشي وسيبويه»، حيث استهلها بالقول: «لفت نظري في المقالات المنشورة في هذا العدد من مجلة اللّغة العربيّة مقالة للفاضلة فريدة بن فضّة، من تيزي وزو، تنقض ما ورد في كتاب: (لتحيا اللّغة العربيّة: يسقط سيبويه) لشريف الشوباشي، لا أعرف الكتاب ولا أريد أن أبدي رأياً مفصّلاً فيما لم أطالع لأنّ ذلك مناف للمناهج العلميّة، إنما أعالج ما أوردت من القضايا المنسوبة إلى الشوباسي وما أعلم علم اليقين أنّ بعض معاصرينا، لئلاّ أقول الكثير منهم يتبنّاه».(نويوات ، م، 2013، 227).

ويشير العلاّمة مختار نويوات(نويوات ، م، 2013، 233) إلى أن كتاب سيبويه لم يوضع للقرن العشرين أو الواحد والعشرين، فلم نُحمل صاحبه أوزارنا؟ والحقيقة التي لا مراء فيها أنّ الشوباشي يقصد بسيبويه الفصحى التي يرى قواعدها من قبيل اللوغاريتمات، ويعدّها السبب الرئيس لصعوبة العربية، بالنسبة إلى اللغات الغربية، وما هي بالصعبة؛ لأن اللُّغة ممارسة يوميّة دائمة لا مجرد قواعد نحوية..ومن ظن الأمر كذلك صدق فيه المثل الشعبيّ: (رمى الشجرة فأخطأ الغابة).

خاتمة:

لقد حاولنا من خلال هذه القراءة كشف النقاب عن بعض الخصوصيات التي وسمت الدراسات العربية التي أُنجزت عن سيبويه، وجهوده اللُّغوية؛ وقد ركزنا على أبحاث اتسمت بالشمولية، كما سلطنا الضوء على بعض المحاولات الجزئية؛ ومن الطبيعي أن الدراسات المُنجزة قد طبعها التفاوت من جهة جديتها، والتباين من حيث أهميتها، وتظل مقدمة عبد السلام محمد هارون، لتحقيقه لكتاب سيبويه، واحدة من أهم ما كُتب عن سيبويه؛ ولذلك فقد ظلت مصدراً تنهل منه دراسات عربية كثيرة.

المصادروالمراجع:

أ-الكتب والمعاجم:

1-(الحاج صالح) عبد الرحمن،(2007م) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية،ج:01،الجزائر، منشورات موفم للنشر في إطار احتفالية الجزائر عاصمة للثقافة العربية.

2-(سيبويه) عمرُو بن عثمان بن قنبر،(1983م) ، تقديم وتحقيق: عبد السلام محمد هارون لكتاب سيبويه، بيروت لبنان، مج:01، منشورات عالم الكتب.

3- (ضيف) شوقي: المدارس النحوية،(1990م)، القاهرة، مصر، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر.

4-(فروخ) عمر: تاريخ الأدب العربي،(1992م) ج:02، بيروت، لبنان، منشورات دار العلم للملايين.

5-(نويوات) مختار الأحمدي،(2013م) عن اللسان وفي البيان مقالات وافتتاحيات،الجزائر، منشورات المجلس الأعلى للّغة العربية.

ب-المجلات :

1- (الحاج صالح) عبد الرحمن ،(2006م)، تحديث أصول البحث في التراث اللغوي العلمي العربي، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية ،مجلة لغوية علمية محكمة تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية،العدد:04،السنة الثانية.

2 - (الحاج صالح) عبد الرحمن ،(2002م)، النحو العربي والبنوية:اختلافهما النظري والمنهجي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية،دورية محكمة تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة،الجزائر،العدد:01.

3-(حداد) حنا جميل ،(2011م)، حول كتاب القوافي لسيبويه، مجلة جذور، مجلّة فصليّة تصدر عن النّادي الأدبي الثّقافي بجدّة بالمملكة العربيّة السّعودية، ج:31، مج:12 .

4-(ابن فضة) فريدة،(2008م) من يتحدّى سيبويه، مجلة اللغة العربية، مجلة نصف سنوية مُحكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر.